



ملهد فريد

الشهيد الشريد

- نذر نفسه لمصر.. ومات خارجها.
- مات في برلين وظل جثمانه بلا دفن ٧ شهور.
- قارع الإنجليز والخطيوى وسجن لمقدمة , ديوان شعر..
- دعا للتعليم المجانى وشجع النقابات المهنية.

التاريخ لا يصنعه إلا الرجال العظام، الذين يسطرون صفحات المجد والفخار، بالدم والجهد والعرق والتضحيات الكبيرة، وتاريخ أمتنا العربية غنى بأمثال هؤلاء الرجال الذين قدموا الكثير لأمتهم.. وأثاروا للأجيال دروب الحرية والكرامة، من هؤلاء المناضل المصري محمد فريد الذى حمل راية الجهاد ضد الاحتلال الإنجليزي بعد وفاة الزعيم الشاب «مصطفى كامل».

وهب «محمد فريد» حياته وعمره كله لوطنه مصر، وكان خير سند لرفيق كفاحه مصطفى كامل، وعندما تحمل المسئولية بعده كزعيم للحزب الوطنى الذى كان يقود حركة الجهاد أثبت أنه من صنّاع التاريخ والمناضلين الكبار الذين نهون عندهم الحياة مادامت من أجل الحرية والاستقلال، وظل فريد يناضل ويعمل من أجل استقلال مصر فى المحافل الدولية متنقلاً بين مصر وبلدان أوروبا، حتى مات غريباً وهو يهتف باسم مصر.

لم يكن محمد فريد مجرد زعيم، بل أحد أهم رموز الجهاد الوطنى فى تاريخ مصر الحديث، وامتدت آثار فعاليات جهاده إلى أوروبا، فقد توزع نضاله السياسى داخل مصر وخارجها فى ارتباط وتناسق. وأبرز ما يميز نضاله أنه لم يكن نضالاً مكملًا لما بداه سلفه الزعيم مصطفى كامل، إذ سلك مسلكاً جديداً فأكسب الحركة الوطنية من طابع شخصيته الصلبة وثقافته الواسعة العريضة ووعيه البالغ، بواقع الأحداث فى مصر وتطور الأوضاع العالمية المحيطة. فقد كانت الحركة الوطنية الجهادية المصرية، حتى وفاة مصطفى كامل، تتسم بمحاولة إيقاظ الأمة ودفعها إلى مناهضة الاحتلال وبث روح الوطنية فى النفوس. وكانت مثل هذه الدعاوى حتمية وضرورية بالنسبة إلى الجيل الذى جاء فى أعقاب الغزو الإنجليزي للبلاد وانطفاء جذوة الثورة «العربية».

فقد وضع لأول مرة برنامجًا لسياسة قومية تُحرك جميع القوى السياسية فى البلاد، على أساس بحث المشكلات الداخلية والخارجية وإشراك المفكرين والكتاب والساسة لتوسيع آفاق الساحة الوطنية، فاحتضن، ومعه صفوة المثقفين فى البلاد، دعوة لإنشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال والفقراء مجانًا. وتم بتشجيع منه تأسيس نقابات العمال والصناع. وكانت أول نقابة للعمال فى مصر هى «نقابة عمال الصنائع اليدوية فى بولاق» وكانت تضم ٨٠٠ عضو وظهرت بعدها الحركة التعاونية.

ترصد وزارة الوفاق

لكن الرجعية ومن ورائها الاحتلال لم تكن بغافلة عن مثل هذه الوثبة الناضجة. وجاءت «وزارة الوفاق» آنذاك لتحاول كسب المعتدلين إلى جانب «الخدوي عباس» وعزل الحركة الوطنية عن الشعب، فأعيد العمل بقانون المطبوعات، الصادر إبّان ثورة أحمد عرابى لتقييد حرية الصحافة، وتوالت المحاكمات وتتابع تعطيل الصحف وبدأ الخناق يضيق على الحركة الوطنية المتفتحة، فتطورت حركة المقاومة تجاه السلطة المطلقة، التى يتمتع بها الخدوي وأصبحت المطالبة والحاجة إلى الدستور والحرية، التى حرمت منها الأمة هى السبيل لمحاربة الاحتلال، وتوفى الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨م، وانتخب محمد فريد وكيل الحزب الوطنى، رئيسًا للحزب. وقد رأى «فريد» أن يكمل مسيرة مؤسس ورئيس الحزب، وندد فى بلاد الدنيا بما يفعله الإنجليز فى مصر. وكان قد اتفق مع الشيخ عبد العزيز جاويش، على رئاسة تحرير جريدة «اللواء»، ولم يضيع يومًا فى إظهار عدائه للاحتلال البريطانى. فكان أول عمل قام به هو إرسال برقية احتجاج إلى «إدوارد غراى» وزير خارجية إنجلترا، قال فيها «الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسًا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا، وكلفتنى بأن أجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى إنجلترا بعهودها».

أحرار في بلاد حرة

ووقف محمد فريد يخطب يوم ١٤ سبتمبر ١٩٠٨م، بمناسبة ذكرى الاحتلال فقال: «إن الأمم تحتفل بحريتها واستقلالها، فمتى نحتفل نحن بالجلاء، ونصبح أحراراً في بلاد حرة؟». وقال أيضاً: «اذكروا يوم ١٤ سبتمبر ولا تنسوه أبداً.. اذكروه كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً.. اذكروه قياماً وعوداً وعلى جنوبكم».

وكانت مطالبته بالجلاء تسبق مناداته بالدستور، لدرجة أنه لم يتردد يوم رأى الخديوى بعد رحيل كرومر، يسعى إلى مخالفة المحتلين ويقطع عن تعضيد الحركة الوطنية في أن يعاديه علناً ويندفع ليكتب بشجاعة وثبات، عدة مقالات في اللواء تحمل على الخديوى حملة عنيفة.. «مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله، أن تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال، إن كل مصرى لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر ومصيرها، فى يد الخديوى بمفرده، أو فى يد المعتمد البريطانى».

ثم ما لبث أن طالب الخديوى بإلغاء القانون الخاص بتأليف محكمة خاصة لمحاكمة من يتهم بالتعدى على جنود الاحتلال، وهى المحكمة التى لعبت دوراً شاداً وغريباً فى واقعة «دنشواى»، واعتزم فريد السفر وذهب لمقابلة الخديوى عباس قبل السفر وأعلنه بما يعتزم فعله، وأنه سيكمل مشواراً بدأه مصطفى كامل حتى لا يُقال إن الحركة ماتت بموته، وأنه سيعلم للعالم أن الحركة الوطنية قوية ولا تقوم بقيام شخص ولا تموت أو تسقط بموته، وقد وافقه الخديوى على مضمض وبدأت بذور الخلاف تنمو منذ هذا اللقاء بعدما حذر فريد الخديوى من محاولات إبطال فعاليات مساعيه وإفشالها، بإرسال من يسعى ويعرقل مسيرته، كما حدث من قبل عندما أرسل الخديوى حافظ عوض وأبازة باشا والشيخ على يوسف خلف فريد لمعاكسته، لكن الخديوى وعده بالأى تتكرر مثل هذه المحاولات وأنه غير مسئول عنها. لكن مخاوف الخديوى زادت، لأنه كان قد حسنَ علاقاته أكثر مع الإنجليز وبدأت جريدة «اللواء» تنشر أخباره

وتنقلاته، وكذلك جريدة «المؤيد» التي يرأس تحريرها الشيخ على يوسف. وأيضاً جريدة «الأهرام» واشتد الصراع وكتب فريد عن أول صداماته مع الخديوى فى مقال بعنوان «ماذا يقولون؟!» كشف فيه كيف خان الخديوى البلاد بسياسة «الوفاق» مع الاحتلال.

الثائر المقلق

وتمضى الأيام بفريد بين جهاد وجهاد. وكتب محمد فريد مقالاً عن الشعر وعلاقته بإذكاء الوطنية ونشره كمقدمة لديوان شعر بعنوان «وطنيتى»، للشيخ «على الغاياتى»، هاجمت كلماته الاحتلال وخيانة الخديوى البلاد وفساد الحاشية، ولم يكن ديوان «وطنيتى» هو القضية وإنما مجرد ذريعة مكشوفة للزج به فى السجن حتى تلين قناته ويصمت أو تعتدل لهجته الوطنية، وقد فطن عشاق الوطن للمؤامرة فحذروه ونصحوه بالبقاء فى أوروبا، ولكنه رفض وصمم على منازلة الأعداء، وضح عزمه عندما بعث إليه ابنته فريده وقالت له: «أتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية أن تعودوا وتحملوا آلام السجن فهو أشرف من أن يُقال إنكم هربتم».

وما أن عاد محمد فريد إلى مصر أواخر ديسمبر سنة ١٩١٠م، حتى تلقفته النيابة العمومية فى الرابع من يناير سنة ١٩١١م للتحقيق معه، وعقدت المحكمة يوم ٢٣ يناير. ورفض فريد أن يترافع عنه المحامون، لأنه ليست هناك إدانة واضحة، وكانت المحكمة برئاسة القاضى دولبر غلوه، وحين سُئل محمد فريد عن التهمة التى نسبت إليه عن مقدمة ديوان الشعر، قال إن الكتاب ظهر وهو فى أوروبا وإنه كتب المقدمة قبل سفره كمقالة تجبذ الجهاد فى سبيل الأوطان وإنها تصلح مقالة مستقلة كما تصلح مقدمة للديوان.

من سجن إلى سجن

وحكّم على فريد بالسجن ستة أشهر، وبعد أن سجنوه أرادوا مساومته على وأد الحركة الوطنية أو استئناسها نظير العفو عنه، لكنه رفض ورفض أن يُهادن

الحكومة بعد خروجه، إذ قال فى الحفل الضخم ، الذى أقامه له الحزب الوطنى: «إنه قد خرج من السجن إلى السجن»، وهى عبارة ظل يكررها دائماً فى مقالاته كاشفاً أن السجن لم يزد له إلا صلابة، وكان ذلك فى الوقت الذى ملأ الرعب صدور الحكام بتعيين «كثشنر» معتمداً بريطانيا فى مصر، إلا أن إيمان محمد فريد بقضية بلاده زاده إصراراً على المطالبة بالجلاء والتنديد بالاحتلال وكل من يتعاون معه، وخاصة خديوى مصر باعتباره رأس النظام. وقد كان ذلك الجهاد سبب المشاق والمصائب، التى دفع محمد فريد ثمنها من استقراره وصحته.

إعلان الحرب

وتمضى الأيام والخديوى عباس الثانى يتربص به، حتى حدث فى ١٩ يناير ما كان سبباً غير خفى فى العداة لفريد. فى ذلك التاريخ ١٩١٢ أقيمت حفلة لرعاية الاطفال تحت رعاية الخديوى وحضرها مندوب عنه. وعند دخول المندوب عزفت الموسيقى النشيد الخديوى ووقف الجميع تحية لاسم الخديوى، ما عدا محمد فريد، مما استرعى أنظار الحاضرين جميعاً وكانت هذه الحادثة هى الأولى من نوعها، فتناقلتها الصحف والسنة العامة والخاصة وكانت لها ضجة داخل السراى الملكية، وعندما حاول قائم مقام الخديوى مخاطبة فريد فى ذلك، ليقدم اعتذاراً بأنه ما كان يقصد إهانة الخديوى بعدم قيامه عند عزف الموسيقى، قال بغضب: «ليس هناك قانون يحتم على الوقوف». وكانت تلك الحادثة بمثابة إعلان حرب على الخديوى والخروج على الاحترام اللائق به.

والقى محمد فريد خطبته السنوية فى جمعية الحزب الوطنى العمومية يوم الجمعة ٢٢ مارس ١٩١٢م ونُشرت حرفياً فى جريدتى اللواء والعلم، وكانت خفيفة اللهجة بالنسبة إلى الخطب السابقة. لكن، للأحداث المتوالية والتربص الحادث، وجد فريد من يطلب لقاءه. جاء أحد رجال الشرطة لمقابلته، فدُهِشَ لأنه لم يخطر بباله مطلقاً أن فى خطبته شيئاً يُعاقب عليه. وزادت دهشته لما أُطِنِعَ على الجواب الذى يحمله، فوجده يدعو لمقابلة رئيس نيابة مصر لاستجوابه عما جاء فى الخطاب. وفى تلك اللحظة، صمم محمد فريد على ترك مصر.

الصفحة الأخيرة

وكانت الصفحة الأخيرة في جهاد محمد فريد خارج مصر. ففي عام ١٩١٢م حضر مؤتمر السلام في جنيف ووزع على أعضائه مذكراته عن القضية المصرية، التي تقرر عرضها في النهاية على المؤتمر، وأصدر فيها المؤتمر قراره القاضي بضرورة الجلاء فوراً عن مصر، لأن الجلاء عن مصر، كما جاء في نص القرار هو «خدمة للسلام العالمي». وسافر في العام الذي تلاه إلى لاهاي، لحضور مؤتمر السلام الذي عُقد فيها. وظل على جهاده في تلك الفترة، التي اتسمت بظهور الحركة الاشتراكية في أوروبا وانتشارها على نطاق عالمي واسع، كما اتسمت هذه الفترة بقيام حركة السلام العالمية، التي كان يحمل لواءها سياسة أوروبا الأحرار ومفكروها وزعماء الاشتراكية والأحزاب العمالية، فكان حتماً ولزماً على زعيم وطني في ثقافة فريد ووعيه وإخلاصه ألا يرتكن في الدفاع عن قضية بلاده على الحكومات الاستعمارية، التي كانت تعد العدة للحرب في سبيل اقتسام العالم، وإنما يلجأ إلى الجهات الشعبية التي تنادي بالسلام والحرية وتقاوم الاستعمار مقاومة عنيدة.

رسالة الوداع

وجاء السطر الأخير، ومات فريد في ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ في برلين. وتروى الوثائق أن محمد فريد عندما أحس أن الموت يقترب منه قال لمن حوله: «إنى وأولادى وكل عزيز لدىّ فداء مصر، لقد أمضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات، فإذا مت فضعوني في صندوق واحفظوني في مكان أمين حتى تُتاح الفرصة لنقل جثتي إلى وطني العزيز، الذي أفارقه وكنت أودّ أن أراه..» وكان هذا الرجل كان يعرف أن أجله المحتوم سوف يوافيه فيحرمه من لقاء وطنه، فكتب قبل شهرين من وفاته «رسالة الوداع» يعبر فيها عن أوجاعه ومعاناته بكلمات حب وعشق كبير لمصر.. فيقول:

«إخواني المصريين الأعزاء.. إنّ الصوت الذي يناجيكم اليوم لصوت منعتة

الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر منذ نحو سبع سنوات، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبا، سواء قبل هذه الحرب أم فى أثنائها أو بعدها. . إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوماً واحداً ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين، بل كان يزداد قوة ونشاطاً كلما تراكمت أمامه العوائق وتكدست العقبات».

سلام على النيل وواديه

ويختم رسالته، التى كتبها على سرير المرض فى مدينة تريته فى سويسرا، التى كان يُعالج فيها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٩م قائلاً:

«سلام عليك أيها الوطن المقدى..

سلام على النيل وواديه..

سلام على الاهرام وبانيه..

سلام على خدام مصر المخلصين..

سلام على شهداء الحرية..».

ثم توقف قلب الزعيم محمد فريد فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩، داخل مصحة الدكتور ستوكمان، الواقعة فى شارع مارتن فى برلين فى ألمانيا، وتعرض الجثمان للإهمال، فظل محفوظاً فى تابوت فى إحدى الكنائس القريبة من مقابر المسلمين فى برلين طوال سبعة شهور، دون أن تتحرك أى هيئة رسمية لإعادة الجثمان إلى مصر وإعطائه ما يستحق من تكريم، جزاء ما قدمه لمصر وشعبها من نضال أنفق فيه كل عمره وما يملك.

وجاء التاجر المصرى الحاج خليل عفيفى، وهو من مدينة الزقازيق، ومن تلقاء نفسه. مليئاً بصوت الضمير ونداء الوطن، حيث أبحر على نفقته الخاصة من الإسكندرية يوم الجمعة ٥ مارس سنة ١٩٢٠م، قاصداً برلين عن طريق فرنسا،

ولم يكد يصل إلى باريس حتى علم بنشوب الثورة الألمانية فأقام في باريس نحو خمسين يوماً حتى استقرت الأحوال في العاصمة الألمانية، ثم سافر إليها. وواجهته في برلين عقبات جديدة. منها أن الحكومة الألمانية كانت قد أصدرت قانوناً قبل ثلاثة أسابيع من وصوله يقضى بعدم جواز نقل جثث المتوفين، من ألمانيا، إلى بلاد أخرى. وخلال إقامة الحاج خليل في ألمانيا طلبت الحكومة الفرنسية إلى ألمانيا الترخيص لها بنقل جثمان ضابط فرنسى، فأذنت لها الحكومة الألمانية على سبيل الاستثناء، فاستند الحاج خليل إلى هذه السابقة، وأعاد الرجاء على الحكومة طالباً أن تآذن له بنقل جثمان محمد فريد. ونجحت جهود الحاج عفيفى وصدر الإذن بذلك. ثم استصدر إذناً من حكومة النمسا بالسماح له بمرور الرفات من أراضيها. وكذلك الحال مع الحكومة الإيطالية. وتم للرجل ما أراد، واتفق المصريون المقيمون في برلين على الاحتفال بتشييع رفات الزعيم إلى محطة برلين. ونقل الرفات يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ١٩٢٠، في جنازة سار فيها جميع المصريين المقيمين في العاصمة الألمانية. ووضع في عربة خاصة فى القطار، الذى نقله إلى ميناء «تريستا» فى إيطاليا، حيث أقلته الباخرة «حلوان»، التى أبحرت يوم ٣ يونيو قاصدة الإسكندرية ووصلت، صباح الثامن من يونيو، وكان الحاج خليل قد أبرق إلى الصحف بنبا إقلاع الباخرة، فاستعد الشعب المصرى لاستقبال الجثمان وتشييع جنازة الزعيم فى الإسكندرية. وتألقت لجنة برعاية الأمير عمر طوسون، للاحتفال بالجنازة عند وصول الجثمان، ودفن «الزعيم» فى القاهرة بعد جنازة مهيبة فى الإسكندرية والقاهرة.